

# الجنس والمجتمع في شعر نزار قباني

بقلم الدكتور الأمريكي الدكتور اريك لوي



(( لم يخلق العرب فنا عظيما خاصا بهم ، انما عبروا عن غريزتهم الفنية عن طريق واحد... هو الكلام.. والشعر.))

فيليب حتي في كتابه «تاريخ العرب»

والفلسفية . ومما زاد في طين هذه الثورة بلة ان هذا الجيل كان يعاني مشكلة شخصية تختص بعلاقات افراد هذا الجيل من الجنسين بعضهم مع بعض او بالاحرى مشكلة انعدام تلك العلاقات او تقييدها تقييدا شالا . ومشكلة الجنس لكونها عاملا مهما ليس في حياة الافراد فحسب بل في حياة المجتمع عامة لم تقب عن بال الباحثين المعاصرين في علم الاجتماع في الغرب وفي امريكا خاصة ، فقد فطن هؤلاء الى ان المشاكل الجنسية الجماعية وبالاحرى القالب الذي تتخذة او النهج الذي تسيير عليه في مجتمع ما لها اثر في حياة هذا المجتمع ولا بد ان تنعكس في النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية او فسي الاتجاهات الاجتماعية او السياسية التي يتخذها المجتمع . فمثلا اذا كانت العلاقات التي بين الجنسين في مجتمع تقليدي ما وفي فترة معينة من تطور هذا المجتمع ، نسودها العقد النفسية المتأينة من الكبت والخيبة والشوق او الشهوة التي لا منفذ لها فلا بد ان تكون الحركات السياسية او الاجتماعية التي يقوم بها افراد هذا المجتمع عنيفة او يشوبها العنف الى حد ما لان افراد هذا المجتمع تملأهم الارادة والعطش الروحي والجسمي فسي حياتهم الجنسية ولعل مجرد اختيار كلمة (انتفاضة) لوصف حدث سياسي او اجتماعي في المجتمع العربي هي بعض الدليل على تأثير الجنس على السياسة والاجتماع في العالم العربي وان هذه (الانتفاضة) التي لم تيسر جنسيا في المجتمع قد عوضت عن نفسها فصارت انتفاضة سياسية او اجتماعية فيها من العنف كثير او قليل !..

ومهما يكن من امر فقد كان المجتمع التقليدي الذي نشأ فيه القباني مجتمعا يفرق بين الجنسين ويضع حدا فاصلا بينهما مقيدا حرية التلاقي والاجتماع بل وحتى حرية التكاثر وتبادل الاراء . فبينما حصلت المرأة الغربية على كامل حريتها او ما يقارب ذلك فشاركست الرجل في تطوير المجتمع الغربي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، ظلت اختها في العالم العربي الشرقي ملازمة لندياها الضيقة التي هي بيت ابياها او زوجها او بيوت اخرى تعد على الاصابع هي بيوت صديقاتها او زوجات اصدقاء زوجها . والحقيقة ان حركة تحرر المرأة العربية وان كانت قد بدأت منذ نهاية القرن الماضي فان اثرها العملي بقسي طفيفا بطيئا ضحلا . صحيح ان تغيرا ما قد طرأ على مركز المرأة ومكانتها الاجتماعية وذلك بتاثير التعليم والثقافة الغربية غير ان هذا التغير لم يكن عميقا او جذريا في الثلاثينات والاربعينات من القرن الحالي ، فان المرأة العربية على الرغم من خروجها

لعله ليس من شعب في العالم كان قد اعطى في شعره مسن المعلومات عن حالته الاجتماعية والبيئية التي عاش فيها اكثر مما فعل العرب في شعرهم الجاهلي . وكان العرب مئات السنين قبل ظهور الاسلام وقبل ان يتشتموا لهم نظاما سياسيا قوميا قد طوروا فنا شعريا عاليا دقيقا في بحوره واوزانه وقافيته غنيا محبوبا في معانيه ولغته والفاظه . وكانت البيئة انصراوية القاسية والحياة البدوية التي عاشها العرب رحلا لا يقر لهم قرار ، لم نكد تترك لنا اثرا بارزا عن حالتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية . فالعرب لم يشيدوا في الصحراء مدنا ولا هم كانوا قد بنوا قصورا او اقاموا اهراما تبيء عنهم انما انبأوا عن انفسهم بتلك الاشعار الخالدة التي تناقلوها ابا عن جد وهي تتحدث الينا بفصاحة وبتفصيل قد لا نجدهما في الخطوط المسماة مثلا او الاتار التي خلفتها شعوب اخرى .

والغريب ان نجد شعراءنا المعاصرين يستمرون في هذا النسج التقليدي الغد . ولعل في شعر نزار قباني دليلا على ما نقوله . فالقباني كرّس معظم نتاجه الشعري لمشكلة المرأة العربية ووضعها ومكانتها في المجتمع العربي وراح متكلما باسمها شاعرا بصوتها حتى صار شعر القباني لا يعكس مشكلة المرأة الاجتماعية فحسب بسبل مشكلة الشباب العربي من الجنسين في تجربتهم العامة وعلاقتهم فيما بينهم في فترة عشرين سنة او اكثر كانت نقطة تحول مهمة ابتداء من الاربعينيات من قرننا هذا .

والمهم ان نعلم ان القباني ولد عام ١٩٢٢ في دمشق لعائلة مسلمة تقليدية من الطبقة الوسطى او فوق ذلك اقتصاديا وانه امضى صباه وشبابه في سوريا الى ان تخرج من كلية الحقوق عام ١٩٤٥ . وان شبابه صادف فترة الحرب العالمية حين كانت سوريا مثلها كمثل غيرها من الدول العربية تمر في دور التغير . فبينما كان العالم يهتز عنيفا بالحرب ، كانت سوريا تفوز بنضالها اوضع حد للحكم الفرنسي على بلادها وقد رافق الارادة التي كان يشعر بها السوريون والعرب عامة نحو الفرنسيين غضب في نفوس ابناء الجيل الجديد على قيم مجتمعهم التقليدي وكان هذا الجيل الجديد (الذي ولد تحت الحكم الفرنسي وثقف ثقافة هي غريبة في درجة كبيرة) يعارض الجيل القديم لتلكه او تقاعسه في اعتناق قيم الغرب وآرائه وتكنيحه كواحدة للحاق يركب ما كان يحسبه تقدما في العالم . فثار ابناء هذا الجيل الجديد على تقاليد الماضي وقيمه وافكاره وطريقة حياته مؤكداين ايثارهم للقيم الجديدة النائرة في الغالب بتعاليم الغرب الاجتماعية

وهماء يكن من امر وبالرغم من الانتقاد العنيف الذي وجه نحوه بما في ذلك مقالة الشيخ علي الطنطاوي ( الرسالة عدد ٦٦١ ص ١٦٠ ) او حتى قول ابيه فيه ( ان ينفع هذا الصبي الواهم نفسه ولن ينفع الدنيا بشيء ) فان شاعرنا مضى في نشر شعره عن احساساته نحو المرأة متكلماً بصوتها مدافعاً عنها لانما في ذلك المجتمع والرجل الذي يسيطر عليه . حتى صار شعره - من هذه الناحية - وثيقة اجتماعية هامة كما قالت الشاعرة سلمى خضراء الجبوسي (١) .

ففي مجموعته الاولى ( قالت لي السمراء ) كما في المجموعات التي تلتها كانت المرأة موضوع شعر القباني الاساسي . وكان يبدو مدفوعاً بنزوة جامحة نحو المرأة كان قد كتبها طويلاً حتى صارت عطشا يصبغ السيطرة عليه :

باعراقي الحمر ... امرأة  
تسير معي في مطاوي الردا  
تفتح ... وتنفخ في اعظمي  
فتجعل من رثتي موقدا ...  
هو الجنس اهل في جوهره  
هيولاه من شاطئ المبتدا  
بتركيب جسمي ... جوع يحسن  
لاخر ... جوع يمد اليد (٢)

كان الشاعر في الحادية والعشرين من عمره ويمكن الفرض بان قسماً كبيراً من قصائده ديوانه هذا كان قد نظم قبل ذلك بسنتين او ثلاث ، اي في مطلع الاربعينيات . ويمكن الحكم من فحوى قصائده المجموعة ومن الجوانب الاجتماعية في تلك الفقرة بان القباني كان يعانى كبتاً تحول الى تسام ( Sublimation ) فحيث ان الشاعر لم يتمكن من تملك المرأة او نوالها فانها تحولت عنده مخلوقة سامية رأسها في النجم لا تطول يد الشاعر اليها :

اريدك  
اعرف اني اريد المحال  
وانك فوق ادعاء الخيال  
وفوق الحيازة ... فوق النوال  
اريدك  
اعرف انك لا شيء غير احتمال  
وغير افتراض  
وغير سؤال ينادي سؤال .. (٣)

واذا بهذه المرأة تكاد تكون عند القباني من الالهة او الملائكة واذا بالارض تزدهر لجرد مس نعلها الارض :  
دوسي ، فمن خطوك قد زر  
الرصيف ! (٤)

فصار مثل كثير قبله من الصوفيين يرى ملامح الاله في وجهها:  
في شكل وجهك اقراً  
شكل الاله الجميل (٥)

دون حجاب كانت ما زالت محافظة بالتقاليد الاجتماعية والقياس الاخلاقية القديمة وكان سلوكها - وخاصة نحو الجنس الاخر - ما زال يسوده نفس الاحلال والاحرام الذي ساد في الجيل القديم او قريباً جداً منه . وهكذا وجد الشاب العربي الذي كان يناضل المجتمع القديم ان المرأة هي جزء من هذا المجتمع الذي كان يكافحه كما وجد نفسه مقيداً لا يستطيع حراكاً الا في طرفي نقيض ، وفي اتجاهين متطرفين محدودين : فاما تلك العلاقات النافهة السطحية بينه وبين الشابة ، تلك العلاقات التي كانت العائلة تضع اطارها وتحددها وترافقها مراقبة شديدة وهي علاقات كان هدفها الزواج - واما على الاتجاه المتطرف الاخر ، تلك العلاقات البهيمية المستعجلة الموقته مع بانعات الهوى التي كان المجتمع - على استهجانه الرسمي الظاهري لها - يقرها ويسمح بها للرجل . وكانت التقاليد تصر على طهارة المرأة التامة قبل الزواج كما تحتم عليها اخلاصاً لا سؤال فيه ولا رجفة بعد الزواج بفض النظر عن شعور المرأة نحو الزوج . ولم يكن ما يتحتم على المرأة هو ما يتحتم على الرجل ، فالرجل هو الذي يسيطر على المرأة : الاب قبل الزواج والزواج . والزواج هو الذي يعين طبيعة العلاقات الجنسية بينه وبين زوجته ويعين اوفاتها ومداهها حسب اندفاعاته ورغباته هو . فالمرأة ملك الرجل وهي حرته ياتيها متى شاء ويبعد عنها متى اراد لا متى هي شاءت او ارادت . وكان الرجل لا يطيل التفكير في ان للمرأة احساسات ورغبات وشعورا كما له هو . وهو ان فكر في ذلك لنذه خشية من هذا التفكير ووجسا لما قد تكون له من استنتاجات . وحتى لو اعتقد بان للمرأة شعورا كما له فانه كان يظن بان الاعتبار بمثل هذا الشعور على ما يجزه من احترام لحقوق صاحبه هو امر ليس من الموضوع به لان في ذلك انقاصاً من حقه هو او حطاً من رجولته او نقليلاً من اهميته ، او على الاقل ان مثل هذا الاعتبار وهذا الاحترام لحقوق المرأة انما يضع الرجل موضع الذي يتوجب عليه ان يقوم بما يجعله اهلاً للمرأة متى ارادها .

والاهون الايسر من كل هذا ان يفرض ارادته وحقه دون الحاجة الى تكرار الالباب بانه اهل لهذه الارادة وذلك الحق . وهكذا نجد ان الاهتمام بحقوق المرأة واحترام احساساتها وشعورها كان على العموم طفيفاً يسيراً ، وانه ان كان لها شيء من هذا فانه قد منح لها منحا ، لا لان ذلك كان من حقها . وعليه فحين اصدر القباني اولى مجموعاته الشعرية ( قالت لي السمراء ) عام ١٩٤٢ فانها على كونها البيفة معتدلة ليس فيها ما يشير ضجة اذا قيست بمقاييس الغرب الاجتماعية والاخلاقية نراها اثار ضجة ما في مجتمع القباني . فدعاة القديم واتباع التقاليد الشعرية العربية نفروا من شعر القباني ووجدوه غير مقبول بينما رأى دعاة الجديد في شعر القباني صدى لشعورهم وتجاربهم الشخصية . ومن هنا فان دور القباني كشاعر اجتماعي برز منذ ديوانه الاول حين صب في شعره مشكلة شخصية كان هو يعانيتها وكان يعانيتها معه شباب مجتمعه .

وحيث ان القباني نظم شعره في المرأة وفي حبه المكبوت له في واقعية لا تترك كثيراً فيها فقد اثار حوله انتقاداً عنيفاً من جانب الفئات المحافظة وذلك لانه قال بصوت عال وعلى الملأ ما كان اجدر به في ظنهم ان يبقى مكتوماً ، ولانه لم يتهج منهج الشعراء التقليديين في المحافظة على الوزن والقافية . وعلى هذا الضوء ، ضوء شجاعة القباني في الجهر على الملأ بمسائل اصرت تقاليد مجتمعه في الاربعينيات على كتمها يلزم بنا ان نزن اهمية شعر القباني وعلى هذا الضوء ايضا نستطيع ان نفهم ذلك الحماس الذي صادفه شعره لدى الشباب اذ تكلم على اشياء كانت تشغل قلوبهم وعقولهم ولعلمهم سرورا ايضا بحيد الشاعر عن قوالب الشعر التقليدي التي راوا فيها جزءاً من تلك التقاليد القديمة التي كانوا يتورون عليها .

(١) : راجع الآداب عدد ١١ لعام ١٩٥٧ .

(٢) من قصيدته (ورقة الى القارىء) : قالت لي السمراء، ص ٢٨

(٣) من قصيدته ( اندفاع ) ص ٥٦

(٤) من قصيدته ( مذعورة الفستان ) ص ٢٨

(٥) من قصيدته ( امام قصرها ) ص ٥٥

ونرى القباني يعكس صورة للجو الذي عاش فيه شباب مجتمعه في ذلك الحين حيث يتغنى بشوقه وشهوته المكبوتة التي لم تنل المرأة المرموقة فهو لا يكتب شعره عن تجربة حقيقية كان الشاعر قد جربها فعلا لاننا نشك في ذلك اللهم الا اذا استثنينا تلك التجارب النافهة مرة المذاق مع متهنات بيع الحب . فلن كرس القباني اثنين من قصائده في هذا الديوان ( الى عجوز والبي ) . اما غير هذا فحبه للمرأة سائب لا يثبت عند امرأة معينة واضحة المعالم والملاح بل اكثر من ذلك ان حبه معد مبيت مستعد دائما للقفز على اية امرأة كانت على شرط ان يكون لها بعض الجمال والشباب ، يعرفها او لا يعرفها كزائرة يراها صدفة في مقهى فيتصور ان فنجانه يهوى فنجانها ( على نمط « احبها وتحبني ويحب ناقنقا بعيري » في لباس عصري ) :

في جوارى اتخذت مقعدها

يثبت الفنجان من لهفته

في يدي شوقا الى فنجانها (٦)

او قد تكون مجرد صيفة غريبة جاءت تصطاف في مصايف لبنان الجميلة فيطير لبه الى هذه المرأة التي لا يعرف عنها سوى انها جميلة في نظره وسوى انها قعدت على المنحنى . وهي قد تكون خرساء او بلاء او موبوءة بالامراض ولكن حب الشاعر السائب البيت يشب عليها فيقول

انت على المنحنى تقعدين ؟

لها رثني هذه القاعدة .

لا فرط حبات توت السباج

واطعم حلمتك الناهدة

احبك ... زوبعة من الشباب

بعشرين لا تعرف العاقبة (٧)

القباني اذن عاش كما عاش شباب مجتمعه في ذلك الحين في حلم من الشوق والشهوة والامل الى امرأة لم يعرفها على وجه التحديد. او انه ان عرفها فانه لم يستطع وصلها فيقبت المرأة في خياله متسامية معصومة من فعل الواقع وبقيت صورتها خضراء بانعة لا تشوبها خيبة القربى وفعل السنين . ويدفع حرمان القباني الى ان يعوض عن المرأة بالطلاسم التي تتصل بها او ترمز اليها مثل منديل كانت قد امسكته باناملها او رسالة ارسلتها او خصلة شعر لا ندري كيف حصل عليها ففدا كالعابد يقبل حجر المعبود او يقفد شجرة كان قد استظل بها الولي :

منديك الخمري .. احيا به

ففيه من طيبك بعض الرشاش ...

وها هنا رسالة ... نثرنا الغالي بها

اخفيه من كل واش

اعز ما خلفت لي خصلة

حبيبة تهتز فوق الفراش (٨)

هذه هي اذن قصائد القباني ، اغنيات شبابه وشباب جيلسه المتصور جوعا الى حب لم يوفقوا اليه ، حب قرأوا عنه في روايات الغرب وراوه على الشاشة البيضاء في الافلام الاوروبية والاميركية.

(٦) من قصيدته ( في المقهى ) ص ٦٣

(٧) من قصيدته ( الى مصطفاة ) ص ١٠٢

(٨) من قصيدته ( غرقتها ) ص ٧٣

ولا نرى القباني في هذا الدور بما يشير الى انه كان ينظر الى المرأة كوحدة كاملة بذاتها او انه ابدى اهتماما بدنياها الباطنة الخاصة، فالقباني يتغنى بشغاف قمرية او صدر ناهد او رجلين يافعتين او عيون شهلاء (٩) كلها اعضاء من جسم المرأة فالنساء عنده في هذه الفترة لا يتعدن كونهن مخلوقات جميلات فائنات يثرن الشهوة والشوق لا اشخاصا من البشر لهم عقل وجسم وقوة وضعف وذكاء وغباوة متساوين مع الرجل يشاركه في افراحه واتراحه وفي افكاره وانجازاته وفشله . والقباني في هذا ايضا صدى لشعور شباب جيله الذي منعهم شوقهم المكبوت الذي لا منفذ يرضيهم له عن رؤية المرأة كإنسان او كشريك في الحياة وليس كحل تروا اليه النفوس والة للمتعة ليس بعدها من متعة . والحق يقال ان قصائد القباني حتى ولو تجردت من كل قيمة شعرية فنية ( وهذا غير صحيح طبعا ) فان قيمتها الاجتماعية لا جدال فيها .

هكذا يبدو القباني حين يتكلم عن المرأة التي لم ينلها وهو يختلف تمام الاختلاف عندما يتكلم عن نساء اخريات يظهر انه عرفهن من قريب ومارس الحب معهن وهو الحب المشتري الذي كان متيسرا للرجال في مكانه وزمانه . فنحن لا نجد تساميا هنا ولا تاليها ولا ازدهار ارفصة الشارع بالورد والياسمين لجرد وطنها باقدام المحبوبة، كل ما هناك اشمزاز وقرف :

عبثا جهودك ... بي الفريزة مظفاة

اني شبعتك جيفة متقيشة

اني قرفتك ناهدا متديلا

وقرفت تلك الحلمة التهرئة .

اخت الازقة ... والمضاجع .. والغوى

والفرقة المشبوهة الثلاثة (١٠)

والصورة التي يعكسها شعر القباني لهؤلاء النساء تبدو واقعية تشوبها الكراهية والمقت هي في الواقع كراهية الشاعر لنفسه وحقده عليها لان تقاليد مجتمعه اضطرت الى مثل هذا الحب اضطرارا وحرمة من الحب الذي كانت نفسه تنوق اليه . الواحدة من هؤلاء النساء عند القباني عجوز شمطاء ، نهودها متديلة ، رائحتها كريهة، ابطها « حفرة ملعونة الدود يملأ قعرها والابوة » وهذه الواقعية التي هي وليدة التجربة الفعلية يظهر نساءه هؤلاء بوضوح فنجد تفاصيل شخصية ملموسة كسن ذهبية او ركية شاحبة « لونها لون الحياة المنكرة » او عطر « ارخص من ان اذكره » او حاجب بولغ في تخطيطه او قم متسع او وجه مجنور او ساق معروقة . هؤلاء النساء لم يكن نساء قد لحن الشاعر من بعيد وحسبهن في منتهى الكمال فائنات دائما طبيبات عطرات ابداء لا شائبة فيهن .

والحق يقال ان القباني لا يقف عند هذا الحد من وصف البفايا بل تبرز انسانيته واحساسه المهرف لكل ظلم اجتماعي يقع على هؤلاء النساء فيلوم الرجال ويلوم المجتمع فينطق بلسانهم مخاطبا الرجال :

يا قضاتي ، يا رماني انكم

انكم اجبن من ان تعدلوا

اي رقي ... مثل انثى ترتمي

تحت شاربيها باوراق ضئيلة

قيمة الانسان ما احقرها

(٩) راجع قصائده : ( فم ) و ( زيتية العينين ) و ( نهذاك ) و

( رافعة النهدي ) الخ ...

(١٠) من قصيدته ( الى عجوز ) ص ١٣١

زعموه غاية ... وهو وسيلة  
تسال الانثى اذا تزني وكم  
مجرم دامي الزنا .. لا يسال  
وسرير واحد ضمهما  
تسقط البنت ويحمى الرجل (11)

ترنو الي لبوة  
برغبة لها يد  
وساقها من عتمة  
الفضاء افعى تشرد  
وجسمها تحت اللهب  
مرعبا مورد  
والعقد فوق ناهديها  
سابع .... مفرد  
كعقدها غريزي  
تنهار ثم تصعد ... (12)

هكذا منذ ديوانه الاول اخذ القباني جانب المرأة ملقيا مسؤولية  
الظلم والاجحاف الواقع عليها على كاهل الرجل والمجتمع الذي يسيطر  
عليه الرجل . والقباني ملؤه الرحمة والشفقة والتفهم نحو المرأة  
في جميع الاحوال الا في حالة الزوجة التي تخون زوجها فيسمى  
مثل هذه المرأة «التيمة» ويسمئها «مدنسة الحليب» حيث يرى ان  
مثل هذه المرأة لا تجرم في حق زوجها فحسب بل هي تؤذي اولادها.

نعم تخرّج القباني من مدرسة الحنين والخيال... ولكنه مع ذلك  
كله لم يزل يرى في المرأة جسما ، وفتنة ومنتعة ، لا غير ..

ثم اصدر القباني عام 1950 مجموعة جديدة ( انت لي ) تجد فيها  
شيئا جديدا : نجد الجموح الجنسي قد هدا بعض الشيء وهذا  
ذلك التحليق العالي التسامي في جو المرأة المثالية التي لا تشوبها  
شائبة . لم يكن هذا الشيء الجديد الذي نجده حدنا ثوريا واناقلبا  
بعيد الاثر بل انه قد لا يلفت النظر اليه لاول وهلة . كان هذا  
هو استطاعة القباني لاول مرة ان ينظر من ثقب مفتاح صغير الى عالم  
المرأة الداخلي . كان هذا شيئا بسيطا ، محاورا بين امرأة شابة  
واختها وهي تستعد لمقابلة حبيبها :

قلم الحمرة ... اختها  
اين اصباغي  
ومشطتي  
والحلتي  
ان بي وجدا  
كوجد الزوبعة ! (13)

ولم يتغير موقف القباني من المرأة عندما كان في العشرين من  
عمره وحتى بلوغه الثلاثين او اكثر من ذلك بقليل . وبعبارة اخرى  
لم يتغير موقف القباني من المرأة تغيرا كبيرا في الاربعينيات والخمسينيات  
من هذا القرن فانه في مجموعاته الاربعة التي اصدرها منذ عام 1944  
وحتى عام 1951 ( قالت لي السمراء 1942 ، طفولة نهد 1948 ، انت  
لي 1950 ، سامبا 1951 ) بنسج فيها على نفس المنوال تقريبا وظل شكل  
المرأة الخارجي وجسمها واعضاء جسمها تشغل فكره دون ميزاتها  
الروحية او الفكرية كإنسان لها عقل بالاضافة الى الجسم ، كما  
بقيت اشعاره الغزلية في كل هذه المجموعات تبدو وكأنها قصيدة طويلة  
واحدة يتغنى فيها حسناواته الكئيب اللواتي تبدو لنا ملامح غير  
واضحة فهي ملامح عامة غير معينة كان الشاعر لم يعرف حسناواته  
عن كذب او بصورة طبيعية انما يراهن بعين الخيال ويخلقهن من  
اشواقه المكبوتة التسامية اكثر مما يراهن بعين الواقع . ومع  
ذلك فالقباني يضيف ، هنا وهناك ، ابعادا جديدة الى شعره الغزلي  
فيفطن الى الطبيعة ويذكر القمر والقيوم والمطر والعصافير .  
وهكذا يتسع مسرح شعره الغزلي وتتسع حدوده . وثم هنالك تغيير  
اخر طرا على شعره بحيث يدعو الى الفرض بان حب القباني لم  
يعد محدودا للشوق الذي لا منفذ له بل خرج منه بعض الشيء الى  
التجربة الفعلية :

ان الثم اليمين منك  
قلت : والشمال  
ما دمت لي : مالي وما  
قيل وما يقال (14)

اخيرا اكتشف شاعرنا ان المرأة الحسنة انسان مثل الرجل لا  
تعيش في السماء بل تتكلم عن امور عادية يومية مثل اصابع حمرة  
او امشاط واهم من ذلك كله اكتشف الشاعر ان للمرأة وجدا «كوجد  
الزوبعة كما للرجل . لم تعد امرأة القباني تلك المخلوقة  
السماوية المتكبرة ، شامخة الانف بحسنتها وجمالها وفتنتها او كما  
يقول هنير المجلاني « في عرس من اعراس الالهة » متربعة على عرشها  
في جبل الالوب حول رأسها هالة من الجمال والرهبة . وبالرغم من  
هذا كله لا نجد القباني متحررا من نظرتة الجسمانية الجنسية بالدرجة  
الاولى الى المرأة حتى عام 1956 حين نشر مجموعته ( قصائد من نزار  
قباني ) . هنا نجده اخيرا يهتم بفكر المرأة اهتمامه بجسمها . لم يعد  
القباني غارقا في النهد والساق ذلك الفرق الذي كاد يعميه عن  
التفكير في اي شيء اخر يمكن ان يكون في المرأة . صار القبانتي  
الآن يهتم بحبه لها وقيمتها :

دعي حكايا الناس  
لن تصيحي  
كبيرة ... الابحبي الكبير (15)

ويبدو ان « تخرّج » القباني من مدرسة الشوق والحنين الى  
مدرسة الممارسة الفعلية لهذا الشوق والحنين من عناوين قصائده  
فلم نعد نرى اشعارا - كما في ديوانه الاول - تمنون « السبي  
مصطافة » او « امام قصرها » او « اسمها » او « في القهي »  
او « غرفتتها » او « مذعورة الغستان » وهي كلها عناوين قصائد نجدها  
في ديوانه ( قالت لي السمراء ) بل نرى في مجموعاته التالية عناوين  
جسرة مثل « هجيرة الشفتين » او « مصلوبة التهدين » او « القلبة  
الاولى » او « عند امرأة » ، ثم دعنا نسمةه :

كانت تئن مثلما  
يئن ذئب مجهد

(13) من قصيدته ( عند امرأة ) في ديوان ( طفولة نهد ) ص 168 .

(14) من قصيدته ( الشقيقتان ) في ( انت لي ) ص 16

(15) من قصيدته ( رسالة حب صغيرة ) فسي ( قصائد نزار  
قباني ) ص 13

(11) من قصيدته ( البغي ) ص 148 - 154  
(12) من قصيدته ( وشوشة ) في مجموعته ( طفولة نهد ) ص 42

والثلاثين من عمره ) بل تعكس ايضا بداية اجتماعية عامة لموقف من المرأة هو اكثر تفهما لها كإنسان يمكن للرجل ان يحبها او على الاقل ان يزنها ليس بميزان غريزته فقط بل وب عقله ايضا . ويعكس هذا الموقف الجديد تفسيراً تدريجياً يكاد يكون غير منظور كان قد طرأ على المجتمع العربي . فقد شب في الخمسينيات وبداية الستينيات جيل جديد قربي في جو سمح اكثر من الجيل الفار له قسط لا بأس به من الحرية في علاقاته مع المرأة حيث كان قد درس معها في المدرسة والجامعة ومن هنا ايضا كان هذا التفهم لها ورؤيتها كإنسان له نقاط ضعف وقوة وليس كالهة تسكن قمة الاولب الشامخة .

في هذه المجموعة ايضا نجد غالبية الثماني والعشرين قصيدة تدور حول الحب وحول المرأة ، غير ان الشاعر صار يبحث الان عن شيء اوسع من الحب الجسماني البحت . صار حبه فلسفياً الى درجة ما يعبر عن نفسه بالكلام ويجد لذة في لهذا التعبير :

عندي للحب  
تعابيسر  
ما مرت في بال دواة (١٧)

ان الذي يرقص الان في مخيلة الشاعر هو ليس خصلة شعر او نهدان او ساقا امرأة انما هي الكلمات التي تتراقص :

سيدتي  
عندي في الدفتر  
ترقص الان الكلمات  
واحدة  
في ثوب اصفر  
واحدة في ثوب احمر (١٨)

وبمضي القباني في هذه الفقرة في كونه ناطقا بلسان المرأة مدافعا عن حقوقها ولكنه الان يتقمص روح المرأة فاذا به يشعر بما تشعر واذا بنا نراها تريد الاحترام وتريد ان تحب ليس كمتمة او كمتاع بل كهي نفسها كما هي ثم دعنا نسمعها تخاطب الرجل :

« تحبني »  
الجملة الجوفاء ذاتها ...  
« تحبني »  
كاي ... اي امرأة .. تحبني  
وجه انا ..  
وجه من الوجوه في دفتر الملون  
جريدة صفراء  
تطويني اذا قرأتني ...  
ولعبة من ورق  
تشيلنسي ...

(١٧) من قصيدته ( اكبر من كل الكلمات ) في ديوان (حبيبتي) ص ١١

(١٨) من قصيدته ( اكبر من كل الكلمات ) في ديوان ( حبيبتي)

ص ١٥ .

وفي هذه الفترة ايضا برز دور القباني كناطق بلسان المرأة العربية ، مدافعا عنها متهما المجتمع والرجل بالظلم والقسوة وعدم الاحترام ثم ابرز احساسات المرأة نفسها وامالها وما يحز في نفسها وموقفها من الرجل الذي يستعملها آلة دون الاكتراث بشعورها هي . ولعلنا نجد القباني في ذروته الشعرية في هذا الباب في ثلاث قصائد تمثل هذا الدور هي ( اوعية الصديد ) و ( حبلى ) و ( رسالة من سيدة حاقدة ) . ففي اوعية الصديد نسمع المرأة تحقد في مرارة وغنف وثورة على الرجل وعلى نوع العلاقات الزوجية التي غدت فيها وعاء لاشباع رغباته الجنسية بالاكراه فتنتدب المكانة التي زواها فيها المجتمع وتقاليدته ( «يا ويل اوعية الصديد» هي ليس تملك ان تريد ولا تريد » ) . وفي ( حبلى ) تحمل المرأة بمرارة وقلب مكلوم على الرجل القاسي حين يكشف بانها حبلى وبانه قد يتحمل مسؤولية عبثه بالمرأة . اما في ( رسالة من سيدة حاقدة ) فيصف القباني مكر الرجل في اغرائه للمرأة ثم انكارها وايصاد ابوابه في وجهها كي يخلو له الجو مع اخرى كان قد اصطادها بحبال مكره وهلم جرا .. :

لسوف نخبرها بما اخبرتنى  
وسترفع الكاس التي جرعتني  
كاسا بها سممتني  
حتى اذا جاءت اليك  
لتردد موعدها الهني  
اخبرتها ان الرفاق  
اتوا اليك ... (١٦)

ولعل اهم شعر القباني من الناحية الاجتماعية قصيدته (خيز وحشيش وقمر ) التي نشرها عام ١٩٥٤ وهي بالرغم مما فيها من مبالغة فقد ابرزت ما تقاسبه الجماهير الفقيرة في الشرق العربي من رجعية وفقر وانحلال وتواكل ومرض فيضيع اهم شيء لديها وهو كبرياؤها وانسانيتها . والقصيدة اشهر من ان نورد منها بعض الابيات هنا .

ثم جاءت مجموعة القباني التالية ( حبيبتي ) وضمت قصيدتين للمرأة هي ( صوت من الحريم ) و ( الحب والبترول ) يطالب فيها بقوة منح المرأة الحب المتبادل التساوي والاحترام المتبادل . والحقيقة انه وان كان قد طرأ تغيير في الخمسينيات على مكانة المرأة في المجتمع العربي واصبحت مصر الدولة العربية الاولى التي فازت فيها امرأتان بالانتخابات للمجلس الوطني عام ١٩٥٧ وفي سوريا حازت المرأة على حق التصويت عام ١٩٥٩ بينما صار العراق اول بلد عربي عينت فيه امرأة وزيرة عام ١٩٥٩ ، فانه بالرغم من ذلك فان المرأة العربية على العموم محافظة ، مقيدة وبقيت للرجل مكانته العليا في السيطرة على المرأة وامالته ارادته عليها كما بقي المجتمع ينظر الى حرية المرأة - وخاصة « فيما يتعلق بالعلاقات مع الجنس المقابل - بنظرة صارمة ملؤها الشك نحو المرأة اذا ما هي حادت قيد انملة عما كان المجتمع يعتبره مقبولا .

وفي هذه الفترة نرى القباني يمر بدور اخر من دور التطور في شعوره نحو المرأة ، وهو تطور لا يعكس فقط نضجه الشخصي ( نشر هذه المجموعة عام ١٩٦١ حين كان قد بلغ الثامنة

(١٦) من قصيدة لنزار قباني

يضاف الى فتوحاتك ...  
متى تفهم ؟  
ايا جملا في الصحراء  
لم يلجم

ويا من ياكل الجذري  
منك الوجه ... والمعصم  
باني لن اكون هنا  
رمادا في سيجارتك  
وراسا

بين الآف الرؤوس على مخداتك ..  
ونهدا .. فوق مرمره  
تسجل شكل بصماتك ..  
متى تفهم ؟  
باني لست من تهتم  
بنارك او بجناتك  
وان كرامتي اكرم  
من الذهب المكس بين راحتك ..  
متى تفهم ؟

هكذا وبصورة عامة تطورت نظرة القباني نحو المرأة فن خمس وعشرين سنة او حوالي ذلك . ونحن لا نذهب الى القول بان القباني يعكس في هذا التطور ما قد طرأ من تطور في المجتمع السوري او العربي على جميع طبقاته . فليس ثمة شك بان هنالك في هذه المجتمعات طبقات ما زالت تعيش على التقاليد واخرى انطلقت تبعد عنها . انما نقول بان القباني يعكس تطورا طرا على فئة معينة هي فئة المثقفين من الطبقة الوسطى ولدوا فسي العشرييات ، جذورهم في تقاليد الماضي وفروعهم في جو من الرومانطيقية الغربية والفلسفة الاجتماعية الغربية .

جامعة بنسلفانيا

(الولايات المتحدة)

اريك لويبا

تحطني ...  
فان رايت لعبة جديدة  
حطمتني ...  
(« تحبني » : معزوفة معادة  
رخيصة الملحن  
تديرها . تديرها  
لكل وجه حسن ..  
فل غيرها ...  
فل تشتهي طيبي ، ودفء مسكني  
فل انسي جميلة ... وسهلة ..  
تريدني  
محظية جديدة  
تدفنها  
وراء جدران الحريم الزمن ...  
اما انا  
فانسي ...  
ابحث يا مستثمري ..  
عن رجل يحبني  
وانت لا تعرف ان تحب .. ان تحبني  
فانت غاوي تحف  
ميدانك العيون  
لا ما وراء الاعين ! (19)

وفي قصيدته الاخرى ( الحب والبترول ) بضرب القباني على نفس الوتر وهو مطالبة المرأة بالاحترام اللائق بها كانسان

متى تفهم ؟  
متى يا سيدي تفهم ؟  
باني لست واحدة  
كفيري من صدقاتك  
ولا فتحنا نسائيا

(19) من قصيدته ( صوت من الحريم ) من ديوانه ( حبيتي ص 106 )

## متى يطلع الفجر يا ربي ؟

قصيدة الثورة الرومانطيقية

بقلم جيان بول اوليفييه  
ترجمة جهوبرع طرابيشي

٧٠٠ ق . ل .

صدر حديثا عن دار الاداب